المحاضرة 07: النقد وقضية الإعجاز

تمهيد:

خص الله سبحانه وتعالى العرب بالقرآن الكريم–النص المعجز الخالد– الذي لم تنقض عجائبه ولن تنقضي حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وذلك بعد أن خص لغتهم بخصائص جعلتها أهلا لاستيعاب هذا الكلام العظيم دون سائر اللغات، ووهبهم عقولا يدركون بها أن هذا الكلام ليس بكلام البشر ولا يمكن أن يكون كذلك إلا أن يكون من لدن حكيم عليم. فقد تحدَّى العرب خاصة وهم أهل البلاغة والبيان على أن يأتوا بمثله فلا يمكن الفصل بينهما، ولذا يمكن أن نتساءل أين تكمن مزية الإعجاز في النص القرآني؟.

مفهوم الإعجاز:

لغةً: في الجذر عجز: العجز نقيض الحزم، عَجَزَ عن الأمر يعجز وعجز عجزا فيهما، ورجل عَجِزَة عَجُزَ:عاجز. ويقال أَعْجَزْتُ فُلَانًا إذا أَلْفَيْتَه عاجِزاً .والمَعْجِزَةُ والمَعْجَزَة :العَجْزُ،والعجز الضعف. والتعجيز والتثبيط والمعجزة أمر خارق للعادة يطهره الله على يد النبي تأييدًا لنبوته، والمعجزة ما يعجز بالبشر ان يأتوا بمثله ومعجزة النبي صلى الله عليه وسلم م أعجز به الخصم عند التحدي[1].

اصطلاحا: ارتبط مفهوم الإعجاز ارتباطًا وثيقًا بالقرآن الكريم، فمنذ البدايات الأولى لنزوله ظهر الانبهار والدهشة على العرب ووقفوا مذهولين، فكان إعجازه يستولي على أحاسيسهم ومشاعرهم، فإعجاز القرآن مركب إضافي وهو إثبات القرآن عجز الخَلقِ عن الإتيان بما تحداهم به وهو الإتيان بمثله.

اتجاهات النقاد في إعجاز القرآن:

[1] – لسان العرب 2814 (عجز) القاموس المحيط ص464 (عجز) والمعجم الوسيط ص585 (عجز).

شكل النص القرآني محور اهتمام العقول والقلوب ، وقضية الإعجاز هي مما لا يختلف فيه اثنان، بكن مواطن الإعجاز هي التي كانت محل جدل بين المشتغلين على هذا الكتاب، بدراسته وبيان إعجازه فوضعوا لذلك مصنفات ومؤلفات تكشف نظرتهم لإعجاز القرآن الكريم ، لذا سنحاول الكشف عن ثلاثة وجوه في إعجاز القرآن الكريم التي إن دلت إنما تدل على عظم هذا الكتال واحتوائه جميع علوم البشر وعقولهم وعدم احتوائهم له ولعلومه.

1- القرآن معجز بالصرفة:

1-1 ابراهيم بن سيار النظام: ابراهيم النظام المعتزلي هو أول من جاء بهذا الرأي الذي يرى أن وجه الإعجاز ليس بلاغة القرآن ولا عجيب تأليفه بل فيما احتواه من علوم غيبية لا سبيل للبشر في الوصول إليها،وكذلك يظهر الإعجاز في صرف العباد عن معارضته، فالآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار بالغيوب، فأما التأليف والنظم فقد كتن يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم ؛ فعجز البشر عن المعارضة ليس نابعا من عدم مقدرتهم على الوصول إلى مرتبة بلاغة القرآن بل عجزهم ناتج عن صرف الله تعالى لهم ولأنه سلبهم العلوم التي لا بد منها للإتيان بما يُشاكل القرآن ويقاربه.

1-2 الشريف المرتضى: الذي ألف كتابه"**الموضح عن جهة إعجاز القرآن**" المعروف بالصرفة يوضح رأيه فيه بالأدلة والحجج التي يراها، فينفي أن القرآن معجز بنظمه، فيقول:" والدليل على أن نظم القرآن ليس بمعجز بنفسه، أنا نعلم أن كل قادر على الكلام العربي،ومتمكن من تقديم بعضه على بعض، لا يعجز أن يحتذي نظم سور القرآن بكلام لا فصاحة له، بل لا فائدة فيه ولا معنى تحته،فإن ذلك لا يضرُّ ولا يخلُّ بالمساواة في طريقة النظم"[2] ، ثم يعقد بعد ذبك فصلا يحتج فيه لفكرة الصرفة التي يراها سر الإعجاز

---

[2] -الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي، الموضح عن جهة إعجاز القرآن- الصرفة-،تح: محمد رضل الأنصاري القمي،مؤسسة الطبع والنشر التابعة للأستانة الرضوية المقدسة،ط1، 1424هـ،ص46.

القرآني وأصله فيقول:"... وفي إطباق الكل على الإمساك عن المعارضة أكبر دليل على أنهم عنها مصروفون،وعن تعاطيها منقطعون"[3].

1-3 أبو الحسن الرماني: وهو من الذين قالو بالصرفة في كتابه النكت في إعجاز القرآن والذي ذكر فيه شبعة أوجه للإعجاز منها الصرفة.

2-القرآن معجز ببلاغته: اهتم رجال هذا الإتجاه بالناحية البلاغية في القرآن الكريم، لاعتقادهم أنَّ بلاغة القرآن وبيانه وجه من وجوه الإعجاز، بل أهم الوجوه وأعظمها حجة منهم :

2-1ابن قتيبة: وهو من أئمة هذا الاتجاه في كتابه "تأويل مشكل القرآن" الذي ألف كتابه ردا على الطاعنين في بلاغة القرآن ومعانيه من المعتزلة، فدرس ابن قتيبة الصور البيانية في القرآن الكريم وقال بالتفاوت بين قصائد الشاعر الواحد وبالتفاوت بين الشعراء، غير أن القرآن الكريم غير متفاوت في بلاغته رغم تنوع خطابه من تشريعي إلى قصصي إلى غير ذلك، وعلل هذا الاعجاز عن طريق البديع فإدراك إعجاز بلاغة القرآن تكون بكثرة مدارسته يقول: "وإنَّما يعرف فضل القرآن من كَثُر نظره واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خصَّ الله به لغتها دون جميع اللغات فإنَّه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة والبيان واتساع المجال ما أوتيَتْه العرب[4].

2-2أبو الحسن علي بن عيسى الرماني:

قسم البلاغة إلى ثلاثة أقسام: " منها ما هو أعلى طبقة، ومنها ماهو أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة، فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن،وما كان دون ذلك فهة ممكن كبلاغة البلغاء من الناس "[5]. والبلاغة

---

[3] - نفسه،ص:97.

[4] - تأويل مشكل القرآن ابن قتيبة ص12.

[5] - إحسان عباس،ص:66-67.

عنده هي "إيصال المعنى للقلب في أحسن صورة من اللفظ"، ومما يجدر به الإشارة هنا أن الرماني في تحديده مفهوم الإعجاز البلاغي إلى جانب ستة وجوه أخرى،نحد أنفسنا وجها لوجه أمام قوله بالصرفة.إن تعايش الإعجاز البلاغي مع الصرفة بمفهمها النظامي مستحيل. ومتدتم تارمتني يقول بالإعجاز البلاغي فإن التأثير حصل عكسيا،وجاء مفهتم الصرفة عنده مختلفا بشكل أساسي عن مفهمها عند النظام.[6]

2-3 أبو هلال العسكري:

يتفق مع فكرة ان قتيبة في أنه لا يعرف فضل القرآن إلا من كثُر نظَره واتسع علمه وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب،مشيرا إلى التباين الواضح بين النص القرآني والنص البشري، وضرورة تعلم البلاغة للتمييز بين مراتب الكلام، فكان غرضه من تأليف كتابه هو تمكين الناس من معرفة البلاغة العربية وجعل ذلك سببا في إدراك الإعجاز القرآني والوصول إلى خصائصه ومميزاته.يقول:"فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه.ويقال:أبلغت في الكلام إذا أتيت في البلاغة فيه.والبلاغة من صفة الكلام "[7]

<u>3-القرآن معجز بنظمه</u>: في الحقيقة لا يبتعد أصحاب هذا الرأي مع من جعلوا البلاغة أصل وجوه الإعجاز:

3-1 الجاحظ: يعتبر أول من قال بأن النظم أساس الإعجاز، وله كتاب من كتبه الضائعة بعنوان **نظم القرآن** خلاصة رأيه أن إعجاز القرآن يكمن في نظم القرآن كلا متكاملا، فلا يكون في الكلمات ذاتها ولا في الحروف أو الجمل العادية التي بتخاطب بها البشر فيما بينهم.

---

[6] -علي مهدي زيتون،ص38.

[7] - أبو هلال العسكري ، المصدر السابق،ص:6.

3-2 القاضي عبد الجبار: وهو صاحب كتاب المغني في أبواب التوحيد والعدل، الذي اعتنى بالنظم عناية كبيرة ورأى أنه المعول عليه في إقامة ميزان الكلام،وربط هدا المفهوم باللفظ والمعنى، كان قد استعمل مصطلح الضم وهو في صدد مناقشة قضية الفصاحة والبلاغة، وذهب إلى أن اللفظة تخضع إلى ثلاث حالات:

1-مفهومها في ذاتها. 2-مفهومها حين تتداول عليها حركات الإعراب. 3- مفهومها حين تأخذ مكانا خاصا في الكلام،فتتقدم أو تتأخر.مؤكدا على أهمية النظم في بلاغة الكلام وفصاحته، وربط بينه وبين هذه المفهومات الثلاثة.

3-3عبد القاهر الجرجاني: لعل أشهر من قال بإعجاز القرآن في نظمه هو عبد القاهر الجرجاني صاحب كتابي "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" ، وذهب إلى أنّه لا مزية للألفاظ في حد ذاتها، لأن الناس تواضعت عليها وإنّما ميزتها حين تضم إلى أخواتها، على وجه مخصوص، فاللفظة تكون حسنة في موضع وتقبح في موضع آخر،كما شبه النظم بالتأليف والصياغة والبناء ورأى أثناء التأليف يسبق المعنى اللفظ عكس القراءة وقسم ذلك إلى:

- لفظ استقل بجماله واستغنى بحسنه دون أن يكون للنظم حساب فيه.
- ونظم اعتمد على تركيب المعاني وتآخي الأفكار دون أن يسانده التأنق في اللفظ.
- وكلام حوى الحسن من طرفيه فجمع جمال الصياغة وتساوق المعاني وتلاحم الفكرة

فهو يرى أنّ إعجاز القرآن الكريم يكمن في نظمه وتأليفه إذ يعرفه بـ : "توخي معاني النحو وأحكامه عند المتكلم"[8].

مصنفات نقدية تأسست على قضية الإعجاز:

[8] – دلائل الإعجاز ص 49 وما بعدها .

ومن المؤلفات النقدية التي كان القرآن الكريم هو الباعث عليها، باعتبارها تأسست على قضية الإعجاز الأسلوبي في القرآن؛ فكشفت عن جماله الفني الرائع وخدمت النقد الأدبي وأغنته، نذكر منها ما يلي:

تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة الدينوري، ومجاز القرآن لأبي عبيدة بن المثنى، وبيان إعجاز القرآن للخطابي، ونظم القرآن للنظام، والحجة في تثبيت النبوة لأبي عثمان الجاحظ. ونظم القرآن لأبي بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني، ونظم القرآن لابن الإخشيد أحمد بن علي، وإعجاز القرآن في نظمه وتأليفه لمحمد بن يزيد الواسطي، والنكت في إعجاز القرآن لأبي الحسن الرماني، وإعجاز القرآن للباقلاني، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني.